على هامش معالة التقريب *

التوحد فى الكل

فى ١٩٩٠/٦/٢٧، غادرت مصر على متن طائرة إلى الولايات المتحدة، ـ فى طريقى إلى مستشفى سانت لوك فى هيوستن لإجراء جراحة دقيقة بالقلب تحدد لها يوم ١٩٩٠/٧/١٦ .. وكان هدفى من الرحيل منكرا، أن أحلو إلى نفسى أياما قبل الجراحة أفكر وأتأمل وأبحر فى عوالم كثيرا ما تشغلنا هموم الحياة وأحداثها الجسام ـ والتافهة !! ـ عن التأمل فيها !! . فى رحلتى لم أصحب معى غير القرآن الحكيم وكتاب " معالم التقريب " لشيخنا العلامة الجليل الأستاذ محمد عبد الله محمد المفكر والشاعر والمحامى الشهير ومؤلف عمدة المراجع " فى جرائم النشر " . إن صحبة القرآن والسياحة فيه صحة طبيعية معلوم أسبابها .. فلمادا " معالم التقريب " بالذات وكنت قد قرأتها ثلاث مرات قبل الرحلة، بل شاركت فى جمعها للنشر فى كتاب الهلال عدد مارس ١٩٨٩، مع ما يصاحب هذا الجمع من تكرار للقراءة الدقيقة الملمة الواعية ؟!

جوابى أن " معالم التقريب " هى أكثر ما قرأت فهما للقرآن وإلماما واعيا عميقا بفلسفته وروحه وأحكامه .. وهو إلى ذلك دعوة عميقة حادة للتقريب بين المسلمين .. فى معالجة مليئة بتضاعيف وسبحات تثير الفكر وتدعو إلى التأمل .. فالتقريب هو اتجاه حاد

---

* الجمهورية ١٩٩٦/٨/١١ ـ مجلة فكر وفن العدد/٤ ـ ١٩٩٦/١١/١

داخل الإسلام، مجرد تماما من اللون الطائفى أو العرقى أو الإقليمى، يسعى للتخلص من العداوة معلنة أو خفية بين أهل المذاهب صيانة لوحدة المسلمين التى تدور حول التسليم بحقوق عامة للمسلم فى كل بلاد الإسلام .. وأهمها عصمة دمه وماله وعرضه وألا يظن به السوء، وثانيهما التمسك بأخوة المسلم برغم اختلاف مذاهب مدارس الفكر .. فالخلاف المذهبى حين يصبح عداوة يكون قد صار أهواء ومصالح، وهذا لا يواجه إلا بلفت النظر والاعتياد على تذكر أنه لا خلاف على الأساسيات .. فإله الجميع واحد .. ونبيهم واحد .. وكتابهم واحد .. وقبلتهم واحدة . وهذا هو رأس مال كل مسلم .. ولا بد من تذكره لكى تتجه قلوب المسلمين وعيونهم إلى المستقبل المشرق الذى ينتظرهم إذا تآخوا وتحابوا .. وكتاب " معالم التقريب " يثير قضايا غاية فى الأهمية ويتناول ذلك كله فى معالجة جادة مليئة كما قلنا بومضات وتضاعيف وسبحات مشحونة بفكر جاد عميق .. ومع ذلك مضى الكتاب للأسف ـ مثلما تمضى معظم أعمالنا الجادة ـ دون أن يلتفت إليه أحد ؟!!

الأستاذ محمد عبد الله، عالم موسوعى، ومفكر فذ، وواحد من أكبر عمالقة جيل الرواد .. تتلمذ عليه آلاف ملأوا الدنيا .. بعضهم شغل ويشغل أرفع المناصب والمواقع ما بين كرسى الوزارة ورئاستها ورئاسة مجلس الشعب .. ومع ذلك لم تعره شهرته ولا دائرة تلاميذه الواسعة بالخروج عن عزوفه الشديد عن أى رغبة فى التصدر أو عرض النفس !! .. حتى إنه ظل سبعين عاما ينظم شعرا عموديا يطاول بلا أدنى مالعة شعر أبى العلاء المعرى ـ دون أن يعرف أحد؟! ـ حتى وقعت بالصدفة على هذه الثروة فبادرت ـ برغم معارضته ـ إلى طبعها فى ديوانين كبيرين : العارف، والطريق .

فى كتابه " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية يبين أن التصدى للدعوات كثيرا ما يكون مقرونا من الناس بوهم كل واحد منهم أنه هو طبيب الملايين !! بل طبيبهم الوحيد !! وأن مرضاه وهم ملايين البشر لا يمكن أن ينتظروا منه أكثر من أفكار أو نصائح أو وصفات مقولة أو مكتوبة ليس عليه منها تبعة ولا عهدة صدقت أم لم تصدق ـ اتبعت أم لم تتبع .. وكل منا قد مر فى الغالب بمثل هذا الموقف وحاول مرة أو مرات أن يقوم بدور طبيب الملايين على هذا النحو وهو يظن أن ملايين العالم يترقبون العلاج والإصلاح على يديه !!

و وراء هذه النزعة، رعة غريزية فى التصدر والقيادة والأهمية، مقرونة بقدر كثير أو قليل من الحرص الغريزى على إشباع رغباتنا الذاتية بأقل ما يمكن من الجهد والمشقة والمخاطر، وبأكثر ما يمكن من الأمن والدعة والعافية !!

ومهما يكن من أمر هذه النزعة، فإن اعتيادها ـ فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد ـ يحيى لدى كثير من الناس إحساسا كاذبا بالعلم والخبرة والجدارة والتفوق ؟!! ويخلق لديهم شعورا طفوليا صبيانيا بأن تغيير أوضاع الحياة وتحويلها وتشكيلها سهل ويسير .. وكثيرا ما يقترن هذا الإحساس الكاذب والشعور الطفولى بجرأة بلهاء على مناهضة نواميس الكون وتحويلها، وضعف التبصر بالنسب بين الأشياء والفروق وبقيمة الزمن والشعور بمعنى الواقع وصلابته وصلة الواقع بالممكن، فتنحجب عنا دون أن ندرى ـ الهوة التى تفصل بين الممكن وبين الوهم والخيال الهاذى . ولو فهمنا هذا لأدركنا أن طريق الدعوات الأعظم، هو الإنسان نفسه لا فيما يقوله أو يدعيه أو يتشدق به، إنما فى حياته نفسها وسلوكه ومواقفه وتصرفاته وأفعاله وردود أفعاله .. باطنه وظاهره .. غيابه

وحضوره .. جده وهزله .. فخطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال أقوى أثرا وتأثيرا من الدعاوى القولية والخطب الرنانة والانفعالات الحماسية !!

على أن الناس تهرب كثيرا من المواقف والتصرفات والأفعال الجادة المجدية إلى الكلام والتشدق، - لأن الكلام سهل بينما تحتاج الأفعال إلى مزيد من الجهد والمشقة وشجاعة القلب وقوة التمسك والثبات فى وجه الصعاب والمخاطر، ولأنه لا يتحقق لأصحاب السكينة والوقار والعفة ما يتحقق فى يسر وسهولة للمتشدقين بالكلمات من إسراع إلى الزعامة والتصدر والقيادة والركوب على رقاب الناس !!

ذلك أن فكرة " المكانة " مطلب لدى الناس قديم .. ويكاد يكون فى زمننا مطلب الجميع .. يقتتل عليه الكل، ويرهقون أنفسهم وأهلهم وذويهم وأشياعهم من أجله .. يتشدقون بالمساواة، ولكنها عندهم مجرد كلمة تقال سرعان ما ينفلت ملقيها منها ومن تبعاتها ويسعى بالوعى وباللا وعى للتصدر وطلب الرفعة والمكانة وعلو القدر والمنزلة وامتلاك الحكمة والفوز بالرعامة والاستئثار بالقيادة .. فهو أعلم الناس وأفقه الناس وأذكى الناس وأخلص الناس وأبعدهم بصرا وبصيرة وأكثرهم قدرة على سياسة الناس وقيادة الكتل والجموع !!!

هؤلاء الناس يتشدقون بالمساواة، ولكنهم فى هلع من التشابه والتماثل فيما يؤثر بالنقص على "المكانة" العليا التى ينشدونها .. وهم لذلك فى صراع لا يبى ولا يهدأ للطفو فوق بحر العاديين غير المعروفين من الناس ؟! كل منهم يسعى حثيثا للفرار من اللا اسمى وحفر اسمه على جدار الزمن، وأن يقرئ الدنيا اسمه فى كل عمل يعمله . حتى فى التفاهات والحماقات !! لا تكف الأيدى ولا

تنى ولا تشبع من الكتابة ومحاولة الكتابة على سبورة الدنيا لا يثبت عليها فى الواقع خط واحد !!

إن المسلم السوى - فيما يقول الأستاذ محمد عبد الله محمد فى " معالم التقريب " - لا يفتنه شىء من هذا كله، ولا يهمه أن يكتب اسمه على شىء - أو حتى أن يعرف الناس وجوده - أو أن يمنحه الناس صيتا أو مجدا، لأنه موقن أن الناس ينسون ويموتون، وأن الله تعالى وحده حىّ لا يموت .. وأن ما عنده سبحانه - باق ومحفوظ لا ينسى ولايضيع .. مهما حجده أو نسيه الناس !!

المسلم السوى يتوحد مع الكل .. يعنى أن نفحة الله تعالى فيه هى للكل ومن أجل الكل، لا تهمه صدارة ولا قيادة ولا وجاهة ولا أبهة . يدرك أن الصورة الإسلامية الحقيقية إنما توجد مع وجود المعنى الجامع وهو الله عز وجل، وبالولاء المطلق لله عز وجل، وفيه وبه لا تنشد النفس سوى رضائه سبحانه الذى تتضاءل وتتلاشى أمامه مغريات المكانة والتصدر والوجاهة !!

المسلم السوى يفهم - وينبغى أن يفهم - أن " المكانة " (فى الدنيا) لا تأتى بالضرورة لمن يطلبها ويجد فى طلبها، وأنها قد تأتى ساعية بنفسها إلى من لا يطلبها بل إلى من قد يبالغ فى العزوف عنها والزهد فيها .. والزهد فى " المكانة " والعزوف عنها يحتاج إلى مجاهدة لأنه مضاد لطبيعة الآدمى .. وهذه المجاهدة أيسر بحكم الطبيعة والدور - لدى الحكماء والمفكرين والعلماء . منها لدى المنشغلين بلحم الحياة أو المشاركين فى إدارة شئون الناس . فتنافس هؤلاء، ودعاوى الاهتمام العام والعمل العام، قد يجرفهم - وربما يدارون به - رغبة عارمة فى التصدر والقيادة، بدعوى أن كلا منهم أحكم الناس وأحلص الناس وأقدر الناس .. لذلك يندر بين هؤلاء من يعزف حقيقة عن التصدر .. ويندر أيضا بينهم من

تتوارى ذاته فى سبيل الكل .. ومع ذلك فلم ينعدم وجود أمثال هؤلاء (النادرين) فى القديم والحديث .. وما دمنا نتحدث على هامش " معالم التقريب "، بين المسلمين، فإن تاريخ المسلمين ملىء بنماذج عديدة وضاءة يقف فى مقدمتها الصحابى الجليل .. أمين الأمة .. وأحد العشرة المبشرين بالجنة .. أبو عبيدة عامر بن الجراح .